



كنتُ أنظر إلى واقع المسلمين وما عندهم من خلاف وافتراء، وأتوجّع لهذا الواقع المؤلم، في الوقت الذي نرى فيه الأمم الأخرى تجتمع بعد افتراق، وتجاوز خلافاتها الدينية، واللغوية، وصراعاتها التاريخية، والعِرْقِية، حتى أصبحوا أمة واحدة، يهابهم القريب والبعيد، ونحن هنا لا تحدث انتخابات جديدة إلا صنعت انقساماً واحتراباً جديداً، ولا يستجدُ أمر إلا افترقنا وتنازعنا من جرائمه، حتى أصبح اجتماع الكلمة أشبه بالوهم الذي لا يمكن تحقيقه، لولا ما نراه هناك رأي العين!

وربما قيل: هذا بسبب البعد عن الدين، وهذا حق؛ فإن ديننا يأمر بالاجتماع وينهى عن التنازع، ولكن ما بال الكفار اجتمعوا كلمتهم، والمسلمون وفي مقدمتهم المتندين، كل حزب بما لديهم فرلون؟!

ومما لاحظه أن المتندين مع قلة الفقه أبعد عن الاجتماع من غير المتندين! فإن المتندين ينماذرك ويقاربك ويحاربك باسم الدين، فإذا دعوته للجتماع، كأنما تراوده عن دينه، وهو يكرر في نفسه: «وَدُوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ» [القلم: 9]. ومن المؤلم جداً حين ترى دعاء اتباع الدليل سبيلاً في التنازع والافتراق، فترى الجالية المسلمة الصغيرة في بعض البلدان، لهم أكثر من عيد، ولا يستطيعون أن يجتمعوا على عيد واحد بحجة الراجح والمرجوح.

لا يمكن أن تكون المشكلة في اتباع الدليل، بل هو الشفاء والعافية.. ولكن أين المشكلة إذن؟!  
إن من عايش المشكلة، وتوجه منها، يستشعر عظمة القرآن حين قرن بين عبادة الاتباع، وعبادة الاجتماع: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازِعُوا فَتَفْشِلُوا وَتَذَهَّبَ رِيحُكُمْ»

[الأنفال: 46]

ما أعظم القرآن، حين قرن بينهما في آية واحدة. مشكلتنا إذن أنها بذلنا جهوداً كبيرة في بيان الطريقة (ل العبادة الاتباع)؛ كيف تبحث عن الدليل، وكيف تتحقق من صحته، وكيف تترجم، وكيف تصحح. بينما لم نبذل جهوداً مماثلة في بيان الطريقة (ل العبادة الاجتماع)؛ كيف تصنع حين تلتقي بقوم آخرين يرجحون ما لا ترجحه، ويصححون ما لا تصححه، ومتى ترك ترجيحك الخاص رعاية لحق الاجتماع، ومتى ترك الاجتماع رعاية لحق الاتباع.

فالتنازع إذن ليس بسبب الاتباع، بل لقصصينا في فقه الاجتماع. إن غاية ما صنعوه و قالوه هو الحث على الاجتماع، دون أن يكون ذلك وفق منهج وآليات واضحة، كما لو اكتفوا بـالمواعظ باتباع الدليل دون تحرير العلماء القارئين على معرفة الدليل والتحقق من ثبوته.

ليتنا نتعلم من صلاة الجماعة، ونحن نمارس فيها (فقه الاتباع) مقرورنا (بفقه الاجتماع)، ثم ما ثبت أن نغادر هذا الفقه حين نُسلِّم من صلاتنا!

ألا يأتي المسبوق في صلاته، فيلحق بالإمام، ويزيد في صلاته وينقص منها بسبب متابعته للجماعة= ما لو فعله منفرداً لبطلت صلاته بإجماع العلماء؟!

مثال ذلك: لو أدرك المسبوقُ الجماعةَ في الركعة الثانية، فإن الإمام مع جماعته سيجلسون للتشهد الأول بعد ركعتهم الثانية، ويجلس معهم هذا المسبوق مع أنه لم يصل إلا ركعة واحدة، ولا يسوغ له غير ذلك.

لو فعلها (المصلحي المنفرد) ذاكرا عالما، فجلس للتشهد بعد ركعته الأولى؛ بطلت صلاته باتفاق الفقهاء، ومع هذا فإنه يفعل حال الجماعة ما لا يجوز له فعله حال الانفراد، رعايةً لحق الاجتماع. بينما ضعف هذا الفقه (فقه الاتباع وفقه الاجتماع) في العصور المتأخرة، وصل بهم الحال إلى افتراقهم في الجماعات، وأصبح في المسجد الحرام مقام ومحراب لكل مذهب! ثم صُححت والحمد لله هذه الفُرقة والتفرق في صلاة الجماعة، وبقيت في مناحي الحياة لم تُصحح.

إن هذا الموضوع يمثل عقدة مركبة في حياتنا الإسلامية، ويستحق مزيدا من البحوث العلمية، التي تتجاوز الوعظ إلى تتبع الأسئلة المشكلة، وبناء النظرية والمنهج في فقه الاجتماع.

وبسبب غياب الرؤية الواضحة التي تنطلق من الكتاب والسنة أصبحنا نرى من يتبع الله بالتنازع وهو عند نفسه يستمسك بالدليل ويصر على الراجح.

هل أصبح التنازع ديناً نقرب به إلى ربنا؟! نعم، هو كذلك في مفاهيمنا الخاطئة، ونسمّي ذلك بغير اسمه.

الإسلام اليوم

المصادر: